(**تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِّنْهُم مَّن كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَلَكِنِ اخْتَلَفُواْ فَمِنْهُم مَّنْ آمَنَ وَمِنْهُم مَّن كَفَرَ وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُواْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ (٢٥٣)**) .

[البقرة : ٢٥٣] .

(**تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ**) يخبر تعالى أنه فضل بعض الرسل على بعض كما قال (وَلَقَدْ فَضَّلْنَا بَعْضَ النَّبِيِّينَ عَلَى بَعْضٍ وَآتَيْنَا دَاوُدَ زَبُوراً) .

وقد أجمع العلماء على أن الأنبياء بعضهم أفضل من بعض ، وأجمعوا على تفضيل الرسل منهم على الأنبياء ، لتميزهم بالرسالة التي هي أفضل من النبوة ، وأجمعوا على تفضيل أولي العزم منهم على بقيتهم ، وعلى تفضيل نبينا على الجميع .

- فإن قيل : ما الجمع بين هذه الآية وبين الأحاديث الواردة في النهي عن التفضيل :

كحديث أبي هريرة . قَالَ (اسْتَبَّ رَجُلاَنِ رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ وَرَجُلٌ مِنَ الْيَهُودِ ، قَالَ الْمُسْلِمُ وَالَّذِي اصْطَفَى مُحَمَّداً عَلَى الْعَالَمِينَ ، فَقَالَ الْيَهُودِيُّ وَالَّذِي اصْطَفَى مُوسَى عَلَى الْعَالَمِينَ . فَرَفَعَ الْمُسْلِمُ يَدَهُ عِنْدَ ذَلِكَ فَلَطَمَ وَجْهَ الْيَهُودِيِّ ، فَذَهَبَ الْيَهُودِيُّ إِلَى النَّبِيِّ ﷺ فَأَخْبَرَهُ بِمَا كَانَ مِنْ أَمْرِهِ وَأَمْرِ الْمُسْلِمِ ، فَدَعَا النَّبِيُّ ﷺ الْمُسْلِمَ فَسَأَلَهُ عَنْ ذَلِكَ ، فَأَخْبَرَهُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ : لاَ تُخَيِّرُونِي عَلَى مُوسَى ، فَإِنَّ النَّاسَ يَصْعَقُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، فَأَصْعَقُ مَعَهُمْ ، فَأَكُونُ أَوَّلَ مَنْ يُفِيقُ ، فَإِذَا مُوسَى بَاطِشٌ جَانِبَ الْعَرْشِ ، فَلاَ أَدْرِى أَكَانَ فِيمَنْ صَعِقَ فَأَفَاقَ قَبْلِي ، أَوْ كَانَ مِمَّنِ اسْتَثْنَى اللَّهُ) متفق عليه .

وفي رواية (لاَ تُفَضِّلُوا بَيْنَ أَنْبِيَاءِ اللَّهِ ...) .

الجمع من وجوه :

الأول : أن النهي في الحديث محمول على ما إذا كان التفضيل يؤدي إلى توهم النقص في المفضول أو الغض منه ، أو كان على وجه الازدراء به .

واختاره الخطابي ، والبغوي ، وابن تيمية ، وابن أبي العز ، وحافظ حكمي .

الثاني : أن النهي محمول على ما إذا كان التفضيل يؤدي إلى المجادلة والمخاصمة والتشاجر والتنازع .

ويؤيد هذا القول سبب ورود الحديث كما تقدم في حديث أبي هريرة .

الثالث : أن النهي محمول على ما إذا كان التفضيل بمجرد الرأي والهوى ، لا بمقتضى الدليل .

الرابع : أن نهيه ﷺ على سبيل التواضع منه ﷺ .

الخامس : أن النهي الوارد في الأحاديث كان قبل نزول الآيات ، وقبل أن يعلم النبي ﷺ أنه سيد ولد آدم .

(**مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ**) يعني موسى ومحمداً ﷺ ، وكذلك آدم .

قال تعالى (وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيماً) .

وقال تعالى (وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ) .

(**وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ**) كما ثبت في حديث الإسراء ، حين رأى النبي ﷺ الأنبياء في السماوات بحسب تفاوت منازلهم عند الله .

يحتمل : أن المراد منه بيان أن مراتب الرسل متفاوتة ، وذلك لأنه تعالى اتخذ إبراهيم خليلاً، ولم يؤت أحداً مثله هذه الفضيلة، وجمع لداود الملك والنبوة ولم يحصل هذا لغيره ، وسخر لسليمان الإنس والجن والطير والريح ، ولم يكن هذا حاصلاً لأبيه داود

ﷺ ، ومحمد ﷺ مخصوص بأنه مبعوث إلى الجن والإنس وبأن شرعه ناسخ لكل الشرائع.

ويحتمل : أن المراد بهذه الآية محمد ﷺ ، لأنه هو المفضل على الكل ، وإنما قال (وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ درجات) على سبيل التنبيه والرمز كمن فعل فعلاً عظيماً فيقال له : من فعل هذا فيقول أحدكم أو بعضكم ويريد به نفسه ، ويكون ذلك أفخم من التصريح به .

(**وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ**) أي: الحجج والدلائل القاطعات على صحة ما جاء بني إسرائيل به، من أنه عبد الله ورسوله إليهم .

كما قال تعالى (وَرَسُولاً إِلَى بَنِي إِسْرائيلَ أَنِّي قَدْ جِئْتُكُمْ بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ أَنِّي أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ فَأَنْفُخُ فِيهِ فَيَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ وَأُحْيِي الْمَوْتَى بِإِذْنِ اللَّهِ وَأُنَبِّئُكُمْ بِمَا تَأْكُلُونَ وَمَا تَدَّخِرُونَ فِي بُيُوتِكُمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ) .

وقال تعالى (إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَى وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدْتُكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلاً وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنْجِيلَ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنْفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْراً بِإِذْنِي وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَى بِإِذْنِي وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرائيلَ عَنْكَ إِذْ جِئْتَهُمْ بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ) .

- قوله تعالى (عيسى ابن مريم) قال ابن تيمية : لما ذكر الله المسيح في القرآن قال (ابن مريم) بخلاف سائر الأنبياء وفي ذلك فائدتان : **إحداهما** : بيان أنه مولود ، والله لم يولد ، **والثانية** : نسبته إلى مريم ، بأنه ابنها ليس هو ابن الله .

(**وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ**) يعني: أن الله أيده بجبريل عليه السلام .

- **فإن قيل** : لم خص موسى وعيسى من بين الأنبياء بالذكر ؟ وهل يدل ذلك على أنهما أفضل من غيرهما ؟

والجواب : سبب التخصيص أن معجزاتهما أبر وأقوى من معجزات غيرهما ، وأيضاً فأمتهما موجودون حاضرون في هذا الزمان ، وأمم سائر الأنبياء ليسوا موجودين ، فتخصيصهما بالذكر تنبيه على الطعن في أمتهما ، كأنه قيل : هذان الرسولان مع علو درجتهما وكثرة معجزاتهما لم يحصل الانقياد من أمتهما ، بل نازعوا وخالفوا ، وعن الواجب عليهم في طاعتهما أعرضوا.

(**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمُ الْبَيِّنَاتُ**) أي : لو أراد الله ما اقتتل الأمم الذين جاءوا بعد الرسل من بعد الحجج الباهرة والبراهين الساطعة التي جاءتهم بها الرسل ، فلو شاء الله ما تنازعوا ولا اختلفوا ولا تقاتلوا ، ولجعلهم متفقين على اتباع الرسل .

- **قال القرطبي** : قوله تعالى (وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلَ الَّذِينَ مِنْ بَعْدِهِمْ) أي : من بعد الرسل.

قيل : الضمير لموسى وعيسى ، والاثنان جمع ، وقيل : من بعد جميع الرسل ، وهو ظاهر اللفظ.

وقيل : إن القتال إنما وقع من الذين جاءوا بعدهم وليس كذلك المعنى ، بل المراد ما اقتتل الناس بعد كل نبيّ ، وهذا كما تقول : اشتريت خيلاً ثم بعتها ، فجاز لك هذه العبارة وأنت إنما اشتريت فرساً وبعته ثم آخر وبعته ، ثم آخر وبعته ، وكذلك هذه النوازل إنما اختلف الناس بعد كل نبيّ فمنهم من آمن ومنهم من كفر بغياً وحسداً وعلى حطام الدنيا ، وذلك كله بقضاء وقدر وإرادة من الله تعالى ، ولو شاء خلاف ذلك لكان ولكنه المستأثر بِسرّ الحكمة في ذلك الفعل لما يريد .

(**وَلَكِنِ اخْتَلَفُوا**) أي : ولكن الله لم يشأ هدايتهم بسبب اختلافهم في الدين وتشعب مذاهبهم وأهوائهم .

(**فَمِنْهُمْ مَنْ آمَنَ**) أي : فمنهم من ثبت على الإيمان .

(**وَمِنْهُمْ مَنْ كَفَرَ**) أي : ومنهم من حاد وكفر .

(**وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا اقْتَتَلُوا**) أي : لو شاء الله لجعل البشر على طبيعة الملائكة لا يتنازعون ولا يقتتلون .

(**وَلَكِنَّ اللَّهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ**) كل ذلك عن قضاء الله وقدره .

الفوائد :

١- أن الرسل عليهم السلام يتفاضلون .

٢- أن فضل الله يؤتيه من يشاء .

٣-إثبات الكلام لله تعالى .

٤- أن كلام الله للإنسان يعتبر رفعة .

٥- إثبات نبوة عيسى .

٦- أن عيسى مولود .

٧- الرد على النصارى في زعمهم أن عيسى إله .

٨- إثبات المشيئة لله تعالى .

٩- بيان حكمة الله في انقسام الناس إلى مؤمن وكافر .

(**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ أَنفِقُواْ مِمَّا رَزَقْنَاكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ وَلاَ شَفَاعَةٌ وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ (٢٥٤)**) .

[البقرة : ٢٥٤] .

(**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا**) تصدير الخطاب بهذا النداء فيه ثلاثة فوائد :

الأولى : العناية والاهتمام به والتنبيه .

الثانية : الإغراء ، وأن من يفعل ذلك فإنه من الإيمان ، كما تقول يا ابن الأجود جُد .

الثالثة : أن امتثال هذا الأمر يعد من مقتضيات الإيمان ، وأن عدم امتثاله يعد نقصاً في الإيمان .

(**أَنْفِقُوا مِمَّا رَزَقْنَاكُمْ**) أي : أنفقوا في سبيل الله من مال الله الذي منحكم إياه ، ادفعوا الزكاة وأنفقوا في وجوه الخير والبر والصالحات .

قيل : هذا الأمر مختص بالزكاة ، لأن قوله (مّن قَبْلِ أَن يَأْتِيَ يَوْمٌ لاَّ بَيْعٌ فِيهِ وَلاَ خُلَّةٌ) كالوعد والوعيد لا يتوجه إلا على الواجب .

وقال الأكثرون : هذا الأمر يتناول الواجب والمندوب ، وليس في الآية وعيد ، فكأنه قيل : حصلوا منافع الآخرة حين تكونون في الدنيا ، فإنكم إذا خرجتم من الدنيا لا يمكنكم تحصيلها واكتسابها في الآخرة .

والقول الثالث : أن المراد منه الإنفاق في الجهاد؛ والدليل عليه أنه مذكور بعد الأمر بالجهاد ، فكان المراد منه الإنفاق في الجهاد، وهذا قول الأصم .

(**مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ**) يعني يوم القيامة .

(**لا بَيْعٌ فِيهِ**) أي : لا تستطيعون أن تفتدوا نفوسكم بمال تقدمونه ، ولو جاء بملء الأرض ذهباً ، فلا تنفعه صداقة أحد بل ولا نسابته .

كما قال تعالى (إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَمَاتُوا وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِمْ مِلءُ الْأَرْضِ ذَهَباً وَلَوِ افْتَدَى بِهِ أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ

وَمَا لَهُمْ مِنْ نَاصِرِينَ) .

وقال تعالى (فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ) .

فالبيع ههنا بمعنى الفدية ، كما قال تعالى (فاليوم لاَ يُؤْخَذُ مِنكُمْ فِدْيَةٌ) .

وقال تعالى (وَلاَ يُقْبَلُ مِنْهَا عَدْلٌ) .

وقال تعالى (وَإِن تَعْدِلْ كُلَّ عَدْلٍ لاَّ يُؤْخَذْ مِنْهَا) . فكأنه قال : من قبل أن يأتي يوم لا تجارة فيه فتكتسب ما تفتدي به من العذاب .

والثاني : أن يكون المعنى : قدموا لأنفسكم من المال الذي هو في ملككم قبل أن يأتي اليوم الذي لا يكون فيه تجارة ولا مبايعة حتى يكتسب شيء من المال.

- وإنما قال سبحانه وتعالى (ولا بيع) لأن عادة الإنسان أن ينتفع بالشيء عن طريق البيع والشراء ، فيشتري ما ينفعه ، ويبيع ما يضره ، لكن يوم القيامة ليس فيه بيع .

(**وَلا خُلَّةٌ**) أي : ولا صديق يدفع عنكم العذاب .

كما قال تعالى (الأخلاء يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ المتقين) وقال (وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأسباب) وقال : (وَيَوْمَ القيامة يَكْفُرُونَ بَعْضُكُمْ بِبَعْضٍ وَيَلْعَنُ بَعْضُكُمْ بَعْضاً) .

(**وَلا شَفَاعَةٌ**) أي : ولا شفيعاً يشفع لكم ليحط عنكم من سيئاتكم إلا أن يأذن الله تعالى .

- **قال الرازي** : المقصود من الآية أن الإنسان يجيء وحده ، ولا يكون معه شيء مما حصله في الدنيا ، قال تعالى (وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فرادى كَمَا خلقناكم أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَّا خولناكم وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ) وقال (وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْداً) .

- وينبغي على الإنسان أن ينفق قبل هجوم الموت عليه ، قال تعالى (وَأَنْفِقُوا مِنْ مَا رَزَقْنَاكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلا أَخَّرْتَنِي إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُنْ مِنَ الصَّالِحِينَ) .

وقال تعالى (حَتَّى إِذَا جَاءَ أَحَدَهُمُ الْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ارْجِعُونِ . لَعَلِّي أَعْمَلُ صَالِحاً فِيمَا تَرَكْتُ كَلَّا إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَائِلُهَا وَمِنْ وَرَائِهِمْ بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُونَ) .

وقال تعالى (وَهُمْ يَصْطَرِخُونَ فِيهَا رَبَّنَا أَخْرِجْنَا نَعْمَلْ صَالِحاً غَيْرَ الَّذِي كُنَّا نَعْمَلُ أَوَلَمْ نُعَمِّرْكُمْ مَا يَتَذَكَّرُ فِيهِ مَنْ تَذَكَّرَ وَجَاءَكُمُ النَّذِيرُ فَذُوقُوا فَمَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ نَصِيرٍ) .

- واعلم أن السبب في عدم الخلة والشفاعة يوم القيامة أمور :

أحدها : أن كل أحد يكون مشغولاً بنفسه ، على ما قال تعالى (لِكُلّ امرئٍ مّنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْن) .

والثاني : أن الخوف الشديد غالب على كل أحد ، على ما قال (يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى الناس سكارى وَمَا هُم بسكارى) .

- **قال السعدي** : وهذا من لطف الله بعباده أن أمرهم بتقديم شيء مما رزقهم الله ، من صدقة واجبة ومستحبة ، ليكون لهم ذخراً وأجراً موفراً في يوم يحتاج فيه العاملون إلى مثقال ذرة من الخير ، فلا بيع فيه ولو افتدى الإنسان نفسه بملء الأرض ذهباً ليفتدي به من عذاب يوم القيامة ما تقبل منه ، ولم ينفعه خليل ولا صديق لا بوجاهة ولا بشفاعة ، وهو اليوم الذي فيه يخسر المبطلون ويحصل الخزي على الظالمين .

(**وَالْكَافِرُونَ هُمُ الظَّالِمُونَ**) وهم الذين وضعوا الشيء في غير موضعه ، فتركوا الواجب من حق الله وحق عباده وتعدوا الحلال إلى الحرام ، وأعظم أنواع الظلم الكفر بالله الذي هو وضع العبادة التي يتعين أن تكون لله فيصرفها الكافر إلى مخلوق مثله ، فلهذا

قال تعالى (والكافرون هم الظالمون) وهذا من باب الحصر ، أي : الذين ثبت لهم الظلم التام ، كما قال تعالى (إن الشرك لظلم عظيم) (تفسير السعدي) .

الفوائد :

١- الأمر بالإنفاق في سبيل الله ومرضاته .

٢-فضيلة الإنفاق مما أعطانا الله .

٣-بيان منّة الله علينا في الرزق .

٤-أن الإنسان إذا مات انقطع عمله .

٥- ينبغي على الإنسان الإنفاق في حياته قبل موته .

٦- أن القيامة دار جزاء لا دار عمل .

٧- أن الدنيا هي دار العمل ، فاليوم عمل ولا حساب وغداً حساب ولا عمل .

٨- أن يوم القيامة لا ينفع إلا العمل الصالح من إنفاق وغيره .

٩- أن الكفر أعظم الظلم .

(اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ (٢٥٥)) .

[البقرة : ٢٥٥] .

هذه الآية أعظم آية في القرآن الكريم كما جاء في صحيح مسلم عَنْ أُبَيِّ بْنِ كَعْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ (يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِى أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ ؟ قَالَ قُلْتُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ . قَالَ : يَا أَبَا الْمُنْذِرِ أَتَدْرِى أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ ؟ . قَالَ قُلْتُ اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ . قَالَ فَضَرَبَ فِي صَدْرِي وَقَالَ « وَاللَّهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِر) رواه مسلم .

(**وَاللَّهِ لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِر**) أي : ليكن العلم هنيئاً لك .

- هنأه النبي ﷺ بهذا البصر والفقه والفهم في كتاب الله تبارك وتعالى الذي أهّله ليتعرف على هذا المعنى من بين آلاف الآيات القرآنية ، فحكم بأن هذه الآية هي أعظم آية في كتاب الله عز وجل .
- لماذا هي أعظم آية ؟

لأن شرف العلم بشرف المعلوم ... وشرف الذكر بشرف المذكور.

فهذه الآية تتعلق بأسماء الله عز وجل وصفاته بل تتعلق بأعظم الأسماء والصفات ، بل تتعلق بأسماء ترجع إليها سائر الأسماء الحسنى التي تدل على أوصاف الكمال ، ولذلك كانت هذه الآية أعظم من غيرها .

- قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : وليس في القرآن آية واحدة تضمنت ما تضمنته آية الكرسي ، وإنما ذكر الله في أول سورة الحديد وآخر سورة الحشر عدة آيات لا آية واحدة .
- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ قَالَ (كَّلَنِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ بِحِفْظِ زَكَاةِ رَمَضَانَ، فَأَتَانِي آتٍ فَجَعَلَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ، وَقُلْتُ وَاللَّهِ لأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. قَالَ إِنِّي مُحْتَاجٌ، وَعَلَىَّ عِيَالٌ، وَلِي حَاجَةٌ شَدِيدَةٌ. قَالَ فَخَلَّيْتُ عَنْهُ فَأَصْبَحْتُ فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ» قَالَ قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً وَعِيَالاً فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ. قَالَ «أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ

وَسَيَعُودُ» فَعَرَفْتُ أَنَّهُ سَيَعُودُ لِقَوْلِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ إِنَّهُ سَيَعُودُ. فَرَصَدْتُهُ فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ لأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ. قَالَ دَعْنِي فَإِنِّي مُحْتَاجٌ، وَعَلَىَّ عِيَالٌ لاَ أَعُودُ، فَرَحِمْتُهُ، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «يَا أَبَا هُرَيْرَةَ ، مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ» قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ شَكَا حَاجَةً شَدِيدَةً وَعِيَالاً، فَرَحِمْتُهُ فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ. قَالَ: أَمَا إِنَّهُ قَدْ كَذَبَكَ وَسَيَعُودُ» فَرَصَدْتُهُ الثَّالِثَةَ فَجَاءَ يَحْثُو مِنَ الطَّعَامِ، فَأَخَذْتُهُ فَقُلْتُ لأَرْفَعَنَّكَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهَذَا آخِرُ ثَلاَثِ مَرَّاتٍ أَنَّكَ تَزْعُمُ لاَ تَعُودُ ثُمَّ تَعُودُ. قَالَ دَعْنِي أُعَلِّمْكَ كَلِمَاتٍ يَنْفَعُكَ اللَّهُ بِهَا. قُلْتُ مَا هُوَ قَالَ إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ (اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ) حَتَّى تَخْتِمَ الآيَةَ، فَإِنَّكَ لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ وَلاَ يَقْرَبَنَّكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ. فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ فَأَصْبَحْتُ، فَقَالَ لِي رَسُولُ اللَّهِ ﷺ «مَا فَعَلَ أَسِيرُكَ الْبَارِحَةَ» قُلْتُ يَا رَسُولَ اللَّهِ زَعَمَ أَنَّهُ يُعَلِّمُنِي كَلِمَاتٍ، يَنْفَعُنِي اللَّهُ بِهَا، فَخَلَّيْتُ سَبِيلَهُ. قَالَ «مَا هِيَ» قُلْتُ قَالَ لِي إِذَا أَوَيْتَ إِلَى فِرَاشِكَ فَاقْرَأْ آيَةَ الْكُرْسِيِّ مِنْ أَوَّلِهَا حَتَّى تَخْتِمَ (اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ) وَقَالَ لِي لَنْ يَزَالَ عَلَيْكَ مِنَ اللَّهِ حَافِظٌ وَلاَ يَقْرَبَكَ شَيْطَانٌ حَتَّى تُصْبِحَ، وَكَانُوا أَحْرَصَ شَيْءٍ عَلَى الْخَيْرِ. فَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ «أَمَا إِنَّهُ قَدْ صَدَقَكَ وَهُوَ كَذُوبٌ، تَعْلَمُ مَنْ تُخَاطِبُ مُنْذُ ثَلاَثِ لَيَالٍ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ» قَالَ لاَ. قَالَ «ذَاكَ شَيْطَانٌ) رواه البخاري .

(**اللهُ**) اسم من أسماء الله ، متضمن للألوهية لله تعالى .

ومعناه : المألوه المعبود الذي تعبده الخلائق ، وتتأله له محبة وتعظيماً وخضوعاً له ، وفزعاً إليه في الحوائج والنوائب ، لما له من صفات الألوهية ، وهي صفات الكمال .

- لا يعرف أحد تسمى به لا في الجاهلية ولا في الإسلام ، وهو مختص بالله لفظاً ومعنى .

لفظاً : أي أن هذا اللفظ لا يصح أن يسمى به أحد .

ومعنى : أي أن الصفة التي تضمنها هذا الاسم وهي الإلهية لا يصلح شيء منها للمخلوق .

- جميع الأسماء ترجع إليه لفظاً ومعنى : أي أن أسماء الله تأتي بعده ولا يأتي بعد شيء منها .

ومعنى ترجع إليه معنى : أي أن هذا الاسم يتضمن صفة الإلهية وهي أوسع الصفات، وهذه الصفة ترجع إليها جميع الصفات.

- الآثار المترتبة على معرفتنا بهذا :

أولاً : محبة الله محبة عظيمة تتقدم على محبة النفس والأهل والولد والدنيا جميعاً ، لأنه المألوه المعبود وحده وهو المنعم المتفضل وحده .

ثانياً : تعظيمه سبحانه وإجلاله وإخلاص العبودية له وحده من توكل وخوف ورجاء ورغبة ورهبة وغير ذلك من أنواع العبادات .

ثالثاً : الشعور بالعزة به سبحانه والتعلق به وحده ، وسقوط الخوف والهيبة من الخلق والتعلق بهم .

رابعاً : طمأنينة القلب وسعادته وأنسه بالله .

خامساً : إرادة الله تعالى بالمحبة والولاء ، وإفراده تعالى بالحكم والتحاكم .

(**لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ**) أي: لا معبود بحق سواه .

فهو الإله الحق الذي تتعين أن تكون جميع أنواع العبادة والطاعة والتأله له تعالى، لكماله وكمال صفاته وعظيم نعمه، ولكون العبد مستحقا أن يكون عبداً لربه، ممتثلاً أوامره مجتنباً نواهيه، وكل ما سوى الله تعالى باطل، فعبادة ما سواه باطلة، لكون ما سوى الله مخلوقاً ناقصاً مدبراً فقيراً من جميع الوجوه، فلم يستحق شيئاً من أنواع العبادة .

- في هذه الآية يخبر الله بأنه منفرد بالألوهية، وذلك من قوله (لا إله إلا هو) هذه جملة تفيد الحصر وطريقة النفي والإثبات هذه من أقوى صيغ الحصر .

ففيها نفي استحقاق غير الله العبادة ، وإثبات استحقاق الألوهية والعبودية لله تعالى .

- **قال ابن كثير** : إخبار بأنه المنفرد بالإلهية لجميع الخلائق .
- **وقال السعدي** : فأخبر أنه الله ، الذي له جميع معاني الألوهية ، وأنه لا يستحق الألوهية والعبودية إلا هو ، وعبودية غيره باطلة.
- **قال ابن رجب** : قَوْل : لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ ، تَقْتَضِي أَلَّا يُحِبَّ سِوَاهُ ، فَإِنَّ اَلْإِلَهَ هُوَ اَلَّذِي يُطَاعُ ، مَحَبَّةً وَخَوْفًا وَرَجَاءً . وَمِنْ تَمَامِ مَحَبَّتِهِ مَحَبَّةُ مَا يُحِبُّهُ ، وَكَرَاهَةُ مَا يَكْرَهُهُ ، فَمَنْ أَحَبَّ شَيْئًا مِمَّا يَكْرَهُ اَللَّهُ ، أَوْ كَرِهَ شَيْئًا مِمَّا يُحِبُّهُ اَللَّهُ لَمْ يَكْمُلْ تَوْحِيدُهُ وَلَا صِدْقُهُ فِي قَوْلِهِ : لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ ، وَكَانَ فِيهِ مِنْ اَلشِّرْكِ اَلْخَفِيِّ بِحَسْبِ مَا كَرِهَهُ مِمَّا يُحِبُّهُ اَللَّهُ ، وَمَا أَحَبَّهُ مِمَّا يَكْرَهُهُ . قَالَ تَعَالَى (ذَلِكَ بِأَنَّهُمُ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُم) .
- فضائل كلمة التوحيد :

أولاً : وَهِيَ كَلِمَةُ اَلْإِخْلَاصِ ، وَشَهَادَةُ اَلْحَقِّ وَدَعْوَةُ اَلْحَقِّ ، وَبَرَاءَةٌ مِنْ اَلشِّرْكِ ، وَلِأَجْلِهَا خُلِقَ اَلْخَلْقُ .

كَمَا قَالَ تَعَالَى (وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُون) .

ثانياً : وَلِأَجْلِهَا أُرْسِلَتْ اَلرُّسُلُ وَأُنْزِلَتْ اَلْكُتُبُ .

قَالَ تَعَالَى (وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُون) .

وقال تعالى (يُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ بِالرُّوحِ مِنْ أَمْرِهِ عَلَى مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ أَنْ أَنْذِرُوا أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاتَّقُونِ) .

وَهَذِهِ اَلْآيَةُ أَوَّلُ مَا عَدَّدَ عَلَى عِبَادِهِ مِنْ اَلنِّعَمِ فِي سُورَةِ اَلنِّعَمِ اَلَّتِي تُسَمَّى سُورَةَ اَلنَّحْلِ ، وَلِهَذَا قَالَ اِبْنُ عُيَيْنَةَ : مَا أَنْعَمَ اَللَّهُ عَلَى اَلْعِبَادِ نِعْمَةً أَعْظَمَ مِنْ أَنْ عَرَّفَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ ، وَإِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ لِأَهْلِ اَلْجَنَّةِ كَالْمَاءِ اَلْبَارِدِ لِأَهْلِ اَلدُّنْيَا؛ وَلِأَجْلِهَا أُعِدَّتْ دَارُ اَلثَّوَابِ وَدَارُ اَلْعِقَابِ ، فِي اَلْآخِرَةِ ، فَمَنْ قَالَهَا وَمَاتَ عَلَيْهَا كَانَ مِنْ أَهْلِ دَارِ اَلثَّوَابِ ، وَمَنْ رَدَّهَا كَانَ مِنْ أَهْلِ اَلْعِقَابِ ، وَمِنْ أَجْلِهَا أُمِرَتْ اَلرُّسُلُ بِالْجِهَادِ ، فَمَنْ قَالَهَا عُصِمَ مَالُهُ وَدَمُهُ .

ثالثاً : هي ثَمَنُ اَلْجَنَّةِ .

قال ﷺ (مَنْ كَانَتْ آخِرَ كَلَامِهِ دَخَلَ اَلْجَنَّة) رواه أبو داود .

رابعاً : وهي نَجَاةٌ مِنْ اَلنَّارِ .

وَسَمِعَ اَلنَّبِيَّ ﷺ مُؤَذِّنًا يَقُولُ : أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ ، فَقَالَ خَرَجَ مِنَ اَلنَّارِ . خَرَّجَهُ مُسْلِمٌ

خامساً : وهي أَحْسَنُ اَلْحَسَنَاتِ .

قَالَ أَبُو ذَرٍّ : (قُلْتُ : يَا رَسُولَ اَللَّهِ ! عَلِّمْنِي عَمَلاً يُقَرِّبُنِي مِنَ اَلْجَنَّةِ ، وَيُبَاعِدُنِي مِنْ اَلنَّارِ ، قَالَ : إِذَا عَمِلْتَ سَيِّئَةً فَاعْمَلْ حَسَنَةً ، فَإِنَّهَا عَشْرُ أَمْثَالِهَا قُلْتُ : يَا رَسُولَ اَللَّهِ ، لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ مِنَ اَلْحَسَنَاتِ ؟ قَالَ هِيَ أَحْسَنُ اَلْحَسَنَات) .

سادساً : وَهِيَ : تُجَدِّدُ مَا دُرِسَ مِنَ اَلْإِيمَانِ فِي اَلْقَلْبِ .

كما فِي اَلْمُسْنَدِ أَنَّ اَلنَّبِيَّ ﷺ قَالَ لِأَصْحَابِهِ (جَدِّدُوا إِيمَانَكُمْ قَالُوا كَيْفَ نُجَدِّدُ إِيمَانَنَا ؟ قَالَ : قُولُوا : لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّه) .

سابعاً : وَهِيَ اَلَّتِي لَا يَعْدِلُهَا شَيْءٌ فِي اَلْوَزْنِ ، فَلَوْ وُزِنَتْ اَلسَّمَاءِ وَالْأَرْضِ رَجَحَتْ بِهِنَّ .

كَمَا فِي اَلْمُسْنَدِ عَنْ عَبْدِ اَللَّهِ بْنِ عَمْرٍو عَنْ اَلنَّبِي ﷺ (أَنَّ نُوحًا قَالَ لِابْنِهِ عِنْدَ مَوْتِهِ : آمُرُكَ بِلَا إِلَهِ إِلَّا اَللَّهُ ، فَإِنَّ اَلسَّمَاوَاتِ اَلسَّبْعَ وَالْأَرَضِينَ اَلسَّبْعَ كُنَّ فِي حَلْقَةٍ مُبْهَمَةٍ قَصَمَتْهُنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّه) .

وَفِيهِ أَيْضًا عَنْ عَبْدِ اَللَّهِ بْنِ عَمْرٍو . عَنْ اَلنَّبِي ﷺ (أَنَّ مُوسَى عليه السلام قَالَ : يَا رَبُّ عَلِّمْنِي شَيْئًا أَذْكُرُكَ بِهِ وَأَدْعُوكَ بِهِ ، قَالَ : يَا مُوسَى ! قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ ، قَالَ : يَا رَبِّ ! كُلُّ عِبَادِكَ يَقُولُونَ هَذَا . قَالَ : قُلْ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ . فَقَالَ : لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ ، إِنَّمَا أُرِيدُ شَيْئًا تَخُصُّنِي بِهِ . قَالَ : يَا مُوسَى ! لَوْ أَنَّ اَلسَّمَاوَاتِ اَلسَّبْعَ وَعَامِرَهُنَّ غَيْرِي وَالْأَرَضِينَ اَلسَّبْعَ فِي كِفَّةٍ ، وَلَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ فِي كِفَّةٍ ،

مَالَتْ بِهِنَّ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّه) .

ثامناً : وَهِيَ أَفْضَلُ اَلذِّكْرِ .

كَمَا فِي حَدِيثِ جَابِرٍ اَلْمَرْفُوع (أَفْضَلُ اَلذِّكْرِ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّه) رواه الترمذي .

تاسعاً : ومن أعظم فضائلها :

ما جاء فِي اَلصَّحِيحَيْنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ﷺ عَنْ اَلنَّبِي ﷺ مَنْ قَالَ (لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، لَهُ اَلْمُلْكُ وَلَهُ اَلْحَمْدُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ، مِائَةَ مَرَّةٍ كَانَتْ لَهُ عَدْلُ عَشْرِ رِقَابٍ ، وَكُتِبَ لَهُ مِائَةُ حَسَنَةٍ ، وَمُحِيَ عَنْهُ مِائَةُ سَيِّئَةٍ ، وَكَانَتْ لَهُ حِرْزًا مِنْ اَلشَّيْطَانِ يَوْمَهُ ذَلِكَ حَتَّى يُمْسِيَ ، وَلَمْ يَأْتِ بِأَفْضَلَ مِمَّا جَاءَ بِهِ ، إِلَّا أَحَدٌ عَمِلَ أَكْثَرَ مِنْ ذَلِك) .

وَفِيهِمَا أَيْضًا عَنْ أَبِي أَيُّوبَ ، عَنْ اَلنَّبِي ﷺ قال (مَنْ قَالَهَا عَشْرَ مَرَّاتٍ كَانَ كَمَنْ أَعْتَقَ أَرْبَعَةَ أَنْفُسٍ مِنْ وَلَدِ إِسْمَاعِيل) .

عاشراً : وَمِنْ فَضَائِلِهَا أَنَّهَا تَفْتَحُ لِقَائِلِهَا أَبْوَابَ اَلْجَنَّةِ اَلثَّمَانِيَةِ .يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاءَ .

كَمَا فِي حَدِيثِ عُمَر . قَالَ رَسُولُ اَللَّهِ ﷺ (مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ يَتَوَضَّأُ، فَيُسْبِغُ اَلْوُضُوءَ، ثُمَّ يَقُولُ: أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، إِلَّا فُتِحَتْ لَهُ أَبْوَابُ اَلْجَنَّةِ") أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ

وَفِي اَلصَّحِيحَيْنِ عَنْ عُبَادَةَ عَنْ اَلنَّبِيِّ ﷺ قَال (مَنْ قَالَ أَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اَللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ، وَأَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، وَأَنَّ عِيسَى عَبْدُ اَللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِنْهُ ، وَأَنَّ اَلْجَنَّةَ حَقٌّ وَأَنَّ اَلنَّارَ حَقٌّ وَأَنَّ اَللَّهَ يَبْعَثُ مَنْ فِي اَلْقُبُورِ فُتِحَتْ لَهُ ثَمَانِيَةَ أَبْوَابٍ مِنَ اَلْجَنَّةِ يَدْخُلُ مِنْ أَيِّهَا شَاء) .

(**اَلْحَيُّ**) الذي له الحياة الكاملة .

ومعناه : أي : ذو الحياة الكاملة المتضمنة لجميع صفات الكمال لم تسبق بعدم، ولا يلحقها زوال، ولا يعتريها نقص بوجه من الوجوه .

- **قال ابن كثير** : أي الحي في نفسه الذي لا يموت أبداً .
- **وقال البغوي** : الباقي الدائم على الأبد .
- **وقال الطبري** : الذي له الحياة الدائمة ، والبقاء الذي لا أول له بحد ، ولا آخره له أمد ، إذ كل ما سواه فإنه وإن كان حياً فلحياته أول محدود ، وآخر ممدود ينقطع بانقطاع أمدها ، وينقضي بقضاء غايتها .
- وقد ورد اسم الحي لله تعالى في عدة آيات :

قال تعالى (اللَّهُ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ) .

وقال تعالى (وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ) .

وقال تعالى (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ) .

وقال تعالى (هُوَ الْحَيُّ لا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ) .

- واسم الحي من أعظم الأسماء ، لأنه يستلزم جميع صفات الكمال لله تعالى .
- كل ما سوى الله ميت .

قال تعالى (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ) .

وقال تعالى (كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ) .

وقال تعالى (كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ . وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو الْجَلالِ وَالْإِكْرَامِ) .

وقد جاء في الحديث (أن جبريل قال للنبي ﷺ : يا محمد عش ما شئت فإنك ميت ، وأحبب من شئت فإنه مفارقه ،

واعمل ...) .

- وفي ذكر صفة (الحي) بعد قوله عز وجل (الله لا إله إلا هو) استدلال على إثبات تفرّده بالألوهية وإبطال عبودية كل من سواه ، وذلك لأنه لا يستحق العبادة إلا من كان حياً بالحياة الذاتية الدائمة الأبدية ، وحيث لا حيّ بهذه الحياة إلا الله الأحد فلا يستحق العبادة إلا هو ، ولهذا قال ابن عاشور : والمقصود إثبات الحياة وإبطال استحقاق آلهة المشركين وصف الإلهية لانتفاء الحياة عنهم كما قال إبراهيم عليه السلام (يَا أَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لا يَسْمَعُ وَلا يُبْصِرُ وَلا يُغْنِي عَنْكَ شَيْئاً) .
- الآثار المترتبة على معرفتنا بهذا الاسم :

أولاً : محبة الله تعالى وإجلاله .

ثانياً : التوكل الصادق على الله ، كما قال تعالى (وَتَوَكَّلْ عَلَى الْحَيِّ الَّذِي لا يَمُوتُ) .

ومن أعظم ما يتوكل على الله فيه طلب الهداية والثبات على الإيمان وعدم الزيغ عنه ، ولذلك كان النبي ﷺ يقول في دعائه (اللهم لك أسلمتُ ، وبك آمنتُ ، وعليك توكلتُ ، وإليك أنبت ، وبك خاصمت ، اللهم إني أعوذ بعزتك لا إله إلا أنت أن تُضلني أنت الحي الذي لا يموت ، والجن والإنس يموتون) رواه مسلم .

ثالثاً : الزهد في الدنيا الفانية وعدم الاغترار بها ، لأنه مهما أعطي العبد من العمر فلابد من الموت

(**الْقَيُّومُ**) أي : القائم بنفسه القائم على غيره ، المتضمن لصفة القيومية .

- **قال ابن كثير** : هو القيّم لغيره ، فجميع الموجودات مفتقرة إليه ، وهو غني عنها ، ولا قوام لها بدون أمره .
- **وقال ابن القيم** : هو الذي قام بنفسه فلم يحتج إلى أحد ، وقام كل شيء به فكل ما سواه محتاج إليه بالذات .
- **وقال السعدي** : القيوم : القائم بنفسه ، القيوم لأهل السماوات والأرض ، القائم بتدبيرهم وأرزاقهم وجميع أحوالهم .

وهذا الاسم له شأن عظيم ، قال ابن أبي العز : وأما القيوم ، فهو متضمن كمال غناه وكمال قدرته ، فإنه القائم بنفسه ، فلا يحتاج إلى غيره بوجه من الوجوه ، المقيم لغيره ، فلا قيام لغيره إلا بإقامته .

- وقد وردت عدة نصوص في القرآن الكريم تدل على أن قيام الموجودات وبقاءها وحفظها بأمر الله ولا قوام لها بدونه .

قال تعالى (أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَى الطَّيْرِ فَوْقَهُمْ صَافَّاتٍ وَيَقْبِضْنَ مَا يُمْسِكُهُنَّ إِلَّا الرَّحْمَنُ إِنَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ بَصِيرٌ) .

وقال تعالى (وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ . وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّى عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ . لا الشَّمْسُ يَنْبَغِي لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ . وَآيَةٌ لَهُمْ أَنَّا حَمَلْنَا ذُرِّيَّتَهُمْ فِي الْفُلْكِ الْمَشْحُونِ . وَخَلَقْنَا لَهُمْ مِنْ مِثْلِهِ مَا يَرْكَبُونَ . وَإِنْ نَشَأْ نُغْرِقْهُمْ فَلا صَرِيخَ لَهُمْ وَلا هُمْ يُنْقَذُونَ . إِلَّا رَحْمَةً مِنَّا وَمَتَاعاً إِلَى حِينٍ) .

- آثار الإيمان المترتب على الإيمان بهذا :

أولاً : محبته سبحانه وحمده وإجلاله وتعظيمه .

ثانياً : التبرؤ من الحول والقوة والافتقار التام لله ، وإنزال جميع الحوائج بالله .

ثالثاً : إخلاص الاستعانة والاستغاثة والاعتصام لله عز وجل، وقطع التعلق بالمخلوق الضعيف المربوب لله تعالى المفتقر إلى ربه.

رابعاً : قال ابن القيم : وهو سبحانه (القيوم) المقيم لكل شيء من المخلوقات – طائعها وعاصيها – فكيف تكون قيوميته بمن أحبَّه وتولاه ، وآثره على ما سواه ، ورضي به دون الناس حبيباً ، ورباً ووكيلاً ، وناصراً ومعيناً وهادياً .

خامساً : الخوف منه سبحانه ومراقبته ، لأنه القائم على كل نفس ، المتولي أمرها ، الحافظ لأعمالها الذي لا يخفى عليه شيء من أمرها .

(**لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ**) السنة : النعاس ، والنوم هو النوم ، وهذه الجملة تأكيد للقيومية .

- **قال ابن كثير** : ومن تمام القيومية أنه لا يعتريه سنة ولا نوم .
- فالله عز وجل لا يعتريه نقص ولا غفلة ولا ذهول عن خلقه ، فلا تأخذه سنة ولا نوم لكمال حياته وقيوميته .
- **قال ابن عاشور** : ونفي استيلاء السنة والنوم على الله تعالى تحقيق لكمال الحياة ودوام التدبير ، وإثبات لكمال العلم ؛ فإنّ السنة والنوم يشبهان الموت ، فحياة النائم في حالهما حياة ضعيفة ، وهما يعوقان عن التدبير وعن العلم بما يحصل في وقت استيلائهما على الإحساس.
- فالله لا ينام لكمال حياته وقيوميته ، وهذه قاعدة : كل صفة نفي يستلزم نفيها وإثبات كمال ضدها .

فكل صفة نفاها الله عن نفسه فإننا ننفيها عن الله مع إثبات كمال ضدها ، وذلك : لأن النفي لا يدل على الكمال حتى يكون متضمناً لصفة ثبوتية يحمد عليها ، فإن مجرد النفي قد يكون سببه العجز فيكون نقصاً ، وقد يكون سببه عدم القابلية فلا يقتضي مدحاً ، كما لو قلت : الجدار لا يظلم .

فقوله تعالى (وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً) لكمال عدله .

وقوله تعالى (وَمَا مَسَّنَا مِنْ لُغُوبٍ) لكمال قدرته .

وقوله تعالى (لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ) لكمال علمه .

وقوله تعالى (لا تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلا نَوْمٌ) لكمال حياته وقيوميته .

وقوله تعالى (وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً) .

فالله لا يعجزه شيء لكمال علمه وقدرته .

قال الشيخ ابن عثيمين : فنفي العجز عنه يتضمن كمال علمه وقدرته، ولهذا قال بعده (إِنَّهُ كَانَ عَلِيماً قَدِيراً) لأن العجز سببه : إما الجهل بأسباب الإيجاد، وإما قصور القدرة عنه، فلكمال علم الله تعالى وقدرته لم يكن ليعجزه شيء في السماوات ولا في الأرض .

- فالنوم من صفات النقص التي يُنزه الله عنها لكمال حياته ، قال ﷺ (إن الله لا ينام ولا ينبغي له أن ينام) . رواه مسلم

فالنوم يحتاجه المخلوق لنقصه وعجزه، فهو يحتاج للنوم للاستراحة، ولذلك لما كان أهل الجنة كاملي الحياة، كانوا لا ينامون.

- ما الحكمة من ذكر النوم بعد نفي السنة ، لأنه إذا قال (لا تأخذه سنة) فقد دل ذلك على أنه لا يأخذه نوم بطريق الأولى .

قيل : لا تأخذه سنة فضلاً عن أن يأخذه النوم .

وقيل : إنما جمع بين نفييهما لأنه لا يلزم من نفي أحدهما نفي الآخر ، إذ يتصور مجيء النوم دفعة من غير مبادئ الوسن ، ومجيء الوسن دون النوم فلذلك نفي كل واحد منهما على حدته بدليل تكرير (لا) .

ولذلك قال ابن عاشور : ونفي السنة عن الله تعالى لا يغني عن نفي النوم عنه ، لأنّ من الأحياء من لا تعتريه السنة فإذا نام نام عميقاً ، ومن الناس من تأخذه السنة في غير وقت النوم غلبة ، وقد تمادحت العرب بالقدرة على السهر .

- موعظة بليغة : تعلق قلب رجل بامرأة بدوية وقد ذهبت ذات ليلة إلى حاجة لها فتبعها الرجل فلما خلا بها في البادية والناس نيام راودها عن نفسها ، فقالت له: انظر أنام الناس جميعاً ففرح الرجل وظن أنها قد أجابته إلى ما ابتغاه فقام وطاف حول مضارب الحي فإذا الناس نيام فرجع مسروراً وأخبرها بخلو المكان إلا من النيام ، فقالت: ما تقول في الله تبارك وتعالى ؟ أنائم هو في هذه الساعة ؟ قال الرجل: إن الله لا ينام ولا تأخذه سنة ، فقالت المرأة: إن الذي لم ينم ولا ينام ويرانا وإن كان الخلق لا يرون فذلك أولى أن نخشاه ، فاتعظ الرجل وتركها وتاب خوفاً من الله تعالى ، ولما مات رئي في المنام فقيل له: ما فعل الله بك؟

فقال: غفر لي لخوفي منه وتوبتي إليه .

وصدق من قال :

وإذا خلـوت بـــريبـــة في ظلمة والنفس داعيـة إلا العصيانِ

فاستحي من نظر الإله وقل لها إن الذي خلق الظلام يراني

(**لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ**) أي : كل ما في السماوات والأرض له سبحانه وتعالى خلقاً وملكاً وتدبيراً .

- **قال ابن جرير** : أي أنه مالك جميع ذلك بغير شريك ولا نديد ، وخالق جميعه دون آلهة ومعبود .
- **وقال ابن كثير** : إخبار بأن الجميع عبيده وفي ملكه ، وتحت قهره وسلطانه .
- **وقال أبو بكر الجزائري** : خلقاً وملكاً وتصرفاً .
- **وقال ابن عاشور** : قوله تعالى (له ما في السماوات وما في الأرض) تقرير لانفراده بالإلهية إذ جميع الموجودات مخلوقاته ، وتعليل لاتّصافه بالقيّوميّة ، لأنّ من كانت جميع الموجودات مِلكاً له فهو حقيق بأن يكون قيّومها وألاّ يهملها ولذلك فُصلت الجملة عن التي قبلها.

وقد جاءت آيات كثيرة في القرآن الكريم تدل على هذا العموم :

قال تعالى (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الْأُمُورُ) .

وقال تعالى (وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ مُحِيطاً) .

وقال تعالى (لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ) .

- وهذه الجملة تؤيد تفرده سبحانه بالألوهية ، وذلك من جانبين :

الأول : حيث إن الجميع عبيد له جل جلاله ، وليس للعبد أن يعبد غير مالكه ، أو يُشرِك غيره معه في العبادة ، وقد نهاه عن ذلك .

الثاني : وحيث إن الجميع عبيد له، فكيف يُعبد مملوك – كائناً من كان – ويُترك المالك، أو يُشرَك مملوك في العبادة مع المالك، وقد نهى عن ذلك .

- والفائدة من إيماننا بأن لله ملك السموات والأرض :

أولاً : الرضا بقضاء الله ، وأن الله لو قضى عليك مرضاً فلا تعترض ، ولو قضى عليك فقراً فلا تعترض ، لأنك ملكه يتصرف فيك كما يشاء ..

يدل لذلك ما أمرنا الله به أن نقول عند المصيبة (الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُمْ مُصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ) .

ويدل لذلك أيضاً ما بيّنه النبي ﷺ لابنته التي أشرف ابنها على الموت، حينما أرسلت إليه ليأتي، فأرسل يقرأ السلام ويقول: إن لله ما أخذ وله ما أعطى ، وكل شيء عنده بأجل مسمى ، فلتصبر ولتحتسب) .

ثانياً : الرضا بشرعه وقبوله والقيام به ، لأنك ملكه .

ثالثاً : أن كل ما في الكون ملك لله الأحد سبحانه وتعالى من غير شريك ، فما لدينا من مال ومتاع وجاه ليس ملكاً لنا بل هو ملك لله ، وإنما نحن مستخلفون فيه للابتلاء والاختبار ، كما قال تعالى (آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَأَنْفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ) .

وقال ﷺ (إن الدنيا حلوة خضرة ، وإن الله مستخلفكم فيها فينظر كيف تعملون ..) رواه مسلم .

(**مَنْ ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلَّا بِإِذْنِهِ**) أي : لا أحد يشفع عنده سبحانه إلا بإذنه ، وذلك لكمال سلطانه .

• **قال الرازي** : استفهام معناه الإنكار والنفي ، أي : لا أحد يشفع عنده أحد إلا بأمره ، وذلك لأن المشركين كانوا يزعمون أن الأصنام تشفع لهم ، وقد أخبر الله تعالى عنهم بأنهم يقولون (مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَى) وقولهم (هَؤُلاءِ شُفَعَاؤُنَا عِنْدَ اللَّهِ) ثم بين تعالى أنهم لا يجدون هذا المطلوب فقال (وَيَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لا يَضُرُّهُمْ وَلا يَنْفَعُهُمْ) فأخبر الله تعالى أنه لا شفاعة عنده لأحد إلا من استثناه الله تعالى بقوله (إِلَّا بِإِذْنِهِ) .

• وهذا –كما تقدم – يدل على كمال ملك الله عز وجل ، لأن المخلوق إذا كان موصوفاً بالملك ، فإن الناس قد يتقدمون بين يديه بالشفاعة من غير استئذان ، وقد يشفع هو من غير رغبة في هذه الشفاعة التي قدمت بين يديه ، لكنه قد يُحرج أو يستحي أو قد يقبل هذه الشفاعة خوفاً من غائلة الشافع ، لأن ملكه لا يقوم إلا به ، لأنه قد يكون من أعوانه الذين لا يقوم ملكه إلا بهم فيقبل الشفاعة خوفاً من غائلة هذا الشافع ، وقد يقبلها حياء منه وخجلاً وإحراجاً ، وقد يقبلها رداً لجميله السابق عليه وإفضاله (الشيخ خالد السبت) .

وأما الله عز وجل فهو لا يخاف من أحد ، ولا يقبل الشفاعة إحراجاً من أحد ، وليس لأحد فضل على الله عز وجل حتى يكون ذلك القبول على سبيل المقايضة .

كما قال تعالى (مَا مِنْ شَفِيعٍ إِلَّا مِنْ بَعْدِ إِذْنِهِ) .

وقال تعالى (يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً) .

وقال تعالى (وَكَمْ مِنْ مَلَكٍ فِي السَّمَاوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئاً إِلَّا مِنْ بَعْدِ أَنْ يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَرْضَى) .

بل بيّن سبحانه وتعالى أن الملائكة ومنهم الروح الأمين عليهم لن يتجرأ أحد منهم الكلام إلا من بعدما أن يأذن له الرحمن كما قال تعالى (يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفّاً لا يَتَكَلَّمُونَ إِلَّا مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً) .

وأخبر النبي ﷺ أنه لن يتقدم يوم القيامة أحد من الأنبياء والمرسلين للشفاعة لدى الرب إلا هو ﷺ ، وحتى هو لن يبدأ في الشفاعة إلا بعدما يأذن الله له ، وفي الحديث (... بعد أن يتأخر عنها آدم وموسى وإبراهيم ونوح وعيسى ، يشفع النبي ﷺ فيقال له : ارفع رأسك ، وسل تعْطَه ، وقل يُسمع ، واشفع تشفّع) .

• والشفاعة في اللغة : جعل الشيء شفيعاً ، وهي التوسط للغير بجلب منفعة أو دفع مضرة .

(**يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ**) اختلف في معناها :

فقيل : (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ) يعني الآخرة لأنهم يُقدِمون عليها (وَمَا خَلْفَهُمْ) من الدنيا لأنهم يخلفونها وراء ظهورهم .

وقيل : (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ) بعد انقضاء آجالهم (وَمَا خَلْفَهُمْ) أي : ما كان من قبل أن يخلقهم ، **وقيل** : ما فعلوا من خير وشر وما يفعلونه بعد ذلك .

والمراد من الآية : أن الله يعلم كل شيء من ماض ومستقبل ، وأن علمه شامل لكل شيء سبحانه وتعالى .

• **قال ابن كثير** : دليل على إحاطة علمه بجميع الكائنات ماضيها وحاضرها ومستقبلها .

• **وقال أبو حيان** : والذي يظهر أن هذا كناية عن إحاطة علمه تعالى بسائر المخلوقات من جميع الجهات .

• **وقال الشيخ صديق حسن خان** : والمقصود أنه عالم بجميع المعلومات لا يخفى عليه شيء من أحوال جميع خلقه ، حتى يعلم دبيب النملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء تحت الأرض الغبراء ، وحركة الذرة في جو السماء ، والطير في الهواء ، والسمك في الماء .

• **وقال السعدي**: (يعلم ما بين أيديهم)أي : ما مضى من جميع الأمور (وما خلفهم) أي : ما يستقبل منها ، فعلمه تعالى محيط بتفاصيل الأمور ، متقدمها ومتأخرها ، بالظواهر والبواطن ، بالغيب والشهادة ، والعباد ليس لهم من الأمر شيء ولا

من العلم مثقال ذرة إلا ما علمهم تعالى .

- مباحث علم الله تعالى :

أولاً : فالله تعالى يعلم كل شيء ، يشمل الجزئيات والكليات .

قال تعالى (وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْماً) .

وقال تعالى (عَالِمِ الْغَيْبِ لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلا فِي الْأَرْضِ وَلا أَصْغَرُ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرُ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ).

ثانياً : يعلم سبحانه الماضي والمستقبل .

قال تعالى (يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ) .

ما بين أيديهم] الحاضر والمستقبل [وما خلفهم] الماضي .

ثالثاً : الله يعلم الخفايا وما في الصدور .

كما قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) .

وقال تعالى (إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ) .

وقال تعالى (وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِ نَفْسُهُ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ) . وقال تعالى (قُلْ إِنْ تُخْفُوا مَا فِي صُدُورِكُمْ أَوْ تُبْدُوهُ يَعْلَمْهُ اللَّهُ) .

رابعاً : وليس شيء يصل إلى الأرض أو يصعد من الأرض إلى السماء إلا قد أحاط الله به علماً .

قال تعالى (يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِي الْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنْزِلُ مِنَ السَّمَاءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا وَهُوَ الرَّحِيمُ الْغَفُورُ) .

خامساً : ويعلم الأمور التي لن تكون كيف تكون لو كانت .

كما قال تعالى عن الكفار حين يكونون في النار (وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ) .

وقال تعالى (لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللَّهُ لَفَسَدَتَا فَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَرْشِ عَمَّا يَصِفُونَ) .

والمتخلفون عن غزوة تبوك لا يحضرونها أبداً ، لأن الله هو الذي ثبطهم عنها بحكمته بقوله (وَلَوْ أَرَادُوا الْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا لَهُ عُدَّةً وَلَكِنْ كَرِهَ اللَّهُ انْبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ اقْعُدُوا مَعَ الْقَاعِدِينَ) وهذا الخروج الذي لا يكون قد علم جل وعلا أن لو كان كيف يكون ، كما صرح به في قوله (لَوْ خَرَجُوا فِيكُمْ مَا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالاً وَلَأَوْضَعُوا خِلالَكُمْ يَبْغُونَكُمُ الْفِتْنَةَ) .

سادساً : ويستوي في علم الله السر والعلانية ، والصغير والكبير والغيب والشهادة .

قال تعالى (وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ) .

وقال تعالى (وَإِنْ تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى) .

وقال تعالى (قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ غَفُوراً رَحِيماً) .

وقال تعالى (اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنْثَى وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِنْدَهُ بِمِقْدَارٍ . عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ . سَوَاءٌ مِنْكُمْ مَنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَنْ جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ) .

سابعاً : وعلم الله لم يسبقه جهل ولا يلحقه نسيان .

قال تعالى (... قَالَ عِلْمُهَا عِنْدَ رَبِّي فِي كِتَابٍ لا يَضِلُّ رَبِّي وَلا يَنْسَى) .

وقال تعالى (... وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّاً) .

أما علم ابن آدم فمسبوق بجهل ويلحقه نسيان كما قال تعالى (وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لا تَعْلَمُونَ شَيْئاً) .

ثامناً : علمنا قليل بالنسبة لعلم الله .

قال تعالى (وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً) .

- الآثار المترتبة من علمنا بهذه الصفة :

أ- الخوف من الله وخشيته ، ومراقبته في السر والعلن ، لأن العبد إذا أيقن أن الله تعالى عالم بحاله مطلع على باطنه وظاهره ، فإن ذلك يدفعه إلى الاستقامة على أمر الله ظاهراً وباطناً .

ب-اليقين بشمول علم الله تعالى لكل شيء في السماوات والأرض ، وللبواطن والظواهر ، يثمر في قلب العبد تعظيم الله تعالى وإجلاله والحياء منه ، كما يعين على التخلص من الآفات القلبية التي تخفى على الناس ولكنها لا تخفى على الله كآفة الرياء والحسد والغل والعجب والكبر .

قال ابن القيم : فإن قلت : فما السبيل إلى حفظ الخواطر ، قلت : أسباب عدة ، **أحدها** : العلم الجازم باطلاع الرب سبحانه ونظره إلى قلبك ، وعلمه بتفصيل خواطرك ، **والثاني** : حياؤك منه ، **الثالث** : إجلالك له أن يرى مثل تلك الخواطر في بيته الذي خلق لمعرفته ومحبته .

ج- إن يقين العبد بعلم الله تعالى الشامل لكل شيء ، ومن ذلك علمه سبحانه بحال عبده المصاب وما يقاسيه من الآلام ، إن ذلك يثمر في القلب الرجاء والأنس بالله ويدفع اليأس والقنوط من القلب .

د-ونستفيد من معرفتنا أن الله عليم بكل شيء : وجوب مراقبة الله ، لأن العاقل إذا علم أن الله سبحانه وتعالى يعلم كل شيء ، فسوف يراقب ربه ، بلسانه وجنانه وأركانه ، فبلسانه : لا ينطق بما حرم الله ، وبجنانه : لا يعتقد بقلبه خلاف الحق ، وبجوارحه : لا يستعملها في المحرمات ، فيستعمل العين في النظر إلى الحرام ، ويستعمل اليد في البطش الحرام ، ويستعمل الآذان في السماع الحرام .

وأيضاً نستفيد من معرفتنا أن الله عليم بكل شيء: الرغبة والنشاط والرجاء، لأن الإنسان يعلم أن الله يعلم بكل أعماله الصالحة، وأنه لن يضيع منها شيء .

- صلة هذه الجملة بما قبلها :

في هذه الجملة – والله أعلم – بيان لسبب حرمان الخلق من الشفاعة إلا بإذنه تعالى ، لأنه وحده تعالى عالم بأحوال الشافع والمشفوع له ، وهو سبحانه وتعالى وحده يعلم من له أن يشفع ومن يستحق أن يُشفع له .

(**وَلا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ**) قوله (من علمه) ذكر المفسرون قولان :

الأول : العلم هنا بمعنى المعلوم .

والثاني : العلم هنا علم ذاته وصفاته .

فعلى القول الأول : قال الطبري : لا يعلم أحد سواه شيئاً إلا بما شاء هو أن يُعلمه ، فأراد فعلّمه .

وقال ابن عطية : لا معلوم لأحد إلا ما شاء الله أن يُعلمه .

وعلى القول الثاني : لا يحيط أحد علماً بذاته جل جلاله وصفاته إلا ما أطلعه تعالى عليه كقوله (ولا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْماً) .

- **قال الشيخ ابن عثيمين** : وقد علمنا الله تعالى أشياء كثيرة عن أسمائه وصفاته، وعن أحكامه الكونية وأحكامه الشرعية، ولكن هذا الكثير هو بالنسبة لمعلومه قليل كما قال تعالى (وَيَسْأَلونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلاً) .

(**وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ**) وسع بمعنى شمل وأحاط كرسيه السماوات والأرض ، **والكرسي:**

قيل: هو العرش، **وقيل:** وسع كرسيه علمه، والصحيح أن الكرسي غير العرش، وأن الكرسي هو موضع قدميّ الله تعالى .

- قول : وسع كرسيه : أي وسع علمه هذا ضعيف ولا يصح ولا يثبت عن ابن عباس .
- وهذا يدل على عظمة الكرسي ، وقد جاء في الحديث (والذي نفسي بيده ، ما السماوات السبع والأرضون السبع عند الكرسي إلا كحَلْقَةٍ ملقاةٍ في فلاةٍ من الأرض ، وإن فضل العرش على الكرسي كفضل الفلاة على تلك الحلْقة) .

وهذا على عظم هذه المخلوقات ، وعظم المخلوق يدل على عظم الخالق .

وقد جاء في الحديث (أُذِن لي أن أحدث عن ملك من ملائكة ...) .

(**وَلا يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا**) أي : لا يثقله ولا يشق عليه حفظ السماوات والأرض لكمال علمه وقدرته وإحاطته .

- **قال ابن كثير** : أي لا يثقله ولا يكرثه حفظ السماوات والأرض ومن فيهما ، ومن بينهما ، بل ذلك سهل عليه ، يسير لديه ، وهو القائم على كل نفس بما كسبت، الرقيب على جميع الأشياء، فلا يعزب عنه شيء، ولا يغيب عنه شيء .
- وهذه من الصفات المنفية ، فالله لا يثقله حفظ السماوات والأرض لكمال قدرته وعلمه وقوته .

(**وَهُوَ الْعَلِيُّ**) فالله له العلو المطلق ، علو الذات ، وعلو الصفات .

أولاً : علو الله ينقسم إلى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : قدر .

القسم الثاني : علو شرف .

وهذان القسمان لم يخالف فيهما أحد ممن ينتسب إلى الإسلام .

وهو سبحانه عالي الصفات والقدر ، منزه عن النقائص والعيوب .

القسم الثالث : علو ذات : وهذا وقع فيه خلاف بين أهل السنة وأهل البدع .

فمذهب أهل السنة والسلف : أن الله تعالى عال بذاته فوق جميع خلقه ، بائن من خلقه مستو على عرشه .

ولهم أدلة كثيرة من الكتاب والسنة والعقل والفطرة .

أما أدلة الكتاب والسنة فقد تنوعت دلالتهما بطرق كثيرة :

أحدها : التصريح بالفوقية .

كقوله تعالى (يَخَافُونَ رَبَّهُمْ مِنْ فَوْقِهِمْ) .

وكقوله تعالى (وَهُوَ الْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِ) .

الثاني : التصريح بالعروج إليه .

كقوله تعالى (تَعْرُجُ الْمَلائِكَةُ وَالرُّوحُ إِلَيْهِ) .

وقوله ﷺ (يعرج الذين باتوا فيكم فيسألهم .) .

الثالث : التصريح بالصعود إليه .

كقوله تعالى (إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ) .

الرابع : التصريح برفعه بعض المخلوقات إليه .

كقوله تعالى (بَلْ رَفَعَهُ اللَّهُ إِلَيْهِ) .

وقوله تعالى (يَا عِيسَى إِنِّي مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ) .

الخامس : التصريح بالعلو المطلق الدال على جميع مراتب العلو .

كقوله تعالى (وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ) .

وقوله تعالى (وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ) .

وقوله تعالى (إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ) .

السادس : التصريح بتنزيل الكتاب منه .

كقوله تعالى (تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ) .

وقوله تعالى (تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ) .

وقوله تعالى (تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ) .

وقوله تعالى (قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ) .

وقوله تعالى (إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُبَارَكَةٍ) .

السابع : التصريح بأن الله تعالى في السماء .

كقوله تعالى (أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ) .

وقال الرسول ﷺ (ارحموا من في الأرض يرحمكم من في السماء) رواه أبو داود .

الثامن : التصريح بالاستواء على العرش .

كقوله تعالى (الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى) .

التاسع : التصريح برفع الأيدي إلى الله تعالى .

كقوله ﷺ : (إن الله يستحيي من عبده إذا رفع إليه يديه أن يردهما صفراً) .

والقول بأن العلو قبلة الدعاء فقط باطل بالضرورة والفطرة ، وهذا يجده من نفسه كل داع .

العاشر : التصريح بنزوله كل ليلة إلى السماء الدنيا ، والنزول المعقول عند جميع الأمم ، إنما يكون من علو إلى أسفل .

الحادي عشر : الإشارة إليه حساً إلى العلو كما أشار إليه من هو أعلم به وبما يجب له ، لما كان بالجمع الأعظم الذي لم يجتمع لأحد مثله في اليوم الأعظم ، في المكان الأعظم ، قال لهم : (أنتم مسؤولون عني ، فما ذا أنتم قائلون ؟ قالوا : نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت . فرفع إصبعه الكريمة إلى السماء ، رافعاً لها إلى من هو فوقها وفوق كل شيء ، قائلاً : اللهم اشهد) .

الثاني عشر : التصريح بلفظ (الأين) كقول أعلم الخلق به ، وأنصحهم لأمته ، وأفصحهم بياناً عن المعنى الصحيح ، بلفظ لا يوهم باطلاً بوجه: (أين الله) .

الثالث عشر : شهادته ﷺ لمن قال : إن ربه بالسماء بالإيمان .

الرابع عشر : إخباره تعالى عن فرعون أنه رام الصعود إلى السماء ليطلع إلى إله موسى ، فيكذبه فيما أخبره من أنه سبحانه فوق السموات ، فقال : (يا هامان ابن لي صرحاً لعلي أبلغ الأسباب أسباب السموات فأطلع إلى إله موسى وإني لأظنه كاذباً) فمن نفى العلو من الجهمية فهو فرعوني ، ومن أثبتها فهو موسوي محمدي .

الخامس عشر : إخباره ﷺ أنه تردد بين موسى عليه السلام وبين ربه ليلة المعراج بسبب تخفيف الصلاة .

من العقل :

أن العلو صفة كمال والسفل صفة نقص ، فوجب لله تعالى صفة العلو وتنزيهه عن ضده .

وأما الفطرة :

قال شارح الطحاوية : وأما ثبوته بالفطرة فإن الخلق جميعاً بطباعهم وقلوبهم السليمة يرفعون أيديهم عند الدعاء ، ويقصدون جهة العلو بقلوبهم عند التضرع إلى الله .

وأما الإجماع :

فقد أجمع الصحابة والتابعون والأئمة على أن الله فوق سمواته مستو على عرشه .

- قوله (أأمنتم من في السماء) .

قد يتوهم واهم أن الله تعالى داخل السماء ، وأن السماء تحيط به ، كما لو قلنا : فلان في الحجرة ، فإن الحجرة تحيط به .

ومنشأ الوهم : ظنه أن (في) التي للظرفية تكون بمعنى واحد في جميع مواردها ، وهذا ظن فاسد ، فإن (في) يختلف معناها بحسب متعلقها .

فقوله (أأمنتم من في السماء) هذا عند أهل التفسير من أهل السنة على أحد وجهين :

الوجه الأول : أن تكون السماء بمعنى العلو ، فإن السماء يراد بها العلو ، كما في قوله تعالى (وأنزل لكم من السماء ماء) والمطر ينزل من السحاب المسخر بين السماء والأرض لا من السماء نفسها .

الوجه الثاني : أن تكون (في) بمعنى (على) ، كما جاءت بمعناها في مثل قوله تعالى (فسيروا في الأرض) أي على الأرض وقوله عن فرعون (ولأصلبنكم في جذوع النخل) أي على جذوع النخل .

- **فإن قيل ما الجواب عن قوله تعالى (وهو في السماء إله وفي الأرض إله) ؟**

وكذلك قوله تعالى (وهو الله في السموات وفي الأرض) ؟

قال ابن تيمية : ليس معناهما أن الله في الأرض كما أنه في السماء ، ومن توهم هذا ، أو نقله عن أحد من السلف فهو مخطئ في وهمه ، وكاذب في نقله .

وإنما معنى الآية الأولى : أن الله مألوه في السماوات وفي الأرض ، كل من فيهما فإنه يتأله ويعبده .

وأما الآية الثانية فمعناها : أن الله إله في السماء ، وإله في الأرض ، فألوهيته ثابتة فيهما .

(**الْعَظِيمُ**) قال الطبري : ذو العظمة الذي كل شيء دونه ، فلا شيء أعظم منه .

وقال الجزائري : العظيم : الذي كل شيء أمام عظمته صغير وحقير .

فالله عظيم في ذاته ، عظيم في أسمائه كلها ، عظيم في صفاته كلها .

قال السعدي : العظيم الجامع لجميع صفات العظمة والكبرياء والمجد والبهاء الذي تحبه القلوب ، وتعظمه الأرواح ، ويعرف العارفون أن عظمة كل شيء وإن جلت في الصفة ، فإنها مضمحلة في جانب عظمة العلي العظيم .

- واعلم أن معاني التعظيم الثابتة لله وحده نوعان :

أحدهما : أنه موصوف بكل صفة كمال ، وله من ذلك الكمال أكمله ، وأعظمه وأوسعه .

والثاني : أنه لا يستحق أحد من الخلق أن يعظم كما يعظم الله، فيستحق من عباده أن يعظموه بقلوبهم وألسنتهم وجوارحهم.

- الآثار المترتبة على معرفتنا بهذا :

أولاً : الخشوع والخضوع لله تعالى والاستكانة والتذلل لعظمته وجبروته ومحبته .

ثانياً : ومن تعظيمه سبحانه نفي الشركاء والأنداد عنه ، قال تعالى (مَا لَكُمْ لا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَاراً) .

ثالثاً : ومن تعظيمه سبحانه : تعظيم أمره ونهيه ، وتعظيم نصوص الكتاب والسنة والاستسلام لها .

رابعاً : ومن تعظيمه سبحانه : تعظيم شعائره ، قال تعالى (ذَلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ) .

خامساً : الاستعانة بالله وحده وصدق التوكل عليه ، وتفويض الأمور إليه .

سادساً : الخوف منه سبحانه وحده ، وعدم الخوف من المخلوق الضعيف .

الفوائد :

١- أنه لا إله بحق إلا الله تعالى .

٢- أن هذه الآية أعظم آية في كتاب الله تعالى .

وقد اختلف العلماء هل كلام الله يتفاضل أم لا على قولين :

القول الأول : مِنْهُمْ مَنْ قَالَ : لَا يَتَفَاضَلُ فِي نَفْسِهِ .

لِأَنَّهُ كُلَّهُ كَلَامُ اللَّهِ وَكَلَامُ اللَّهِ صِفَةٌ لَهُ قَالُوا : وَصِفَةُ اللَّهِ لَا تَتَفَاضَلُ .

كَذَلِكَ قَالَ هَؤُلَاءِ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى (مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا) قَالُوا فَخَيْرٌ إنَّمَا يَعُودُ إلَى غَيْرِ الْآيَةِ مِثْلَ نَفْعِ الْعِبَادِ وَثَوَابِهِمْ .

وَالْقَوْلُ الثَّانِي : أَنَّ بَعْضَ الْقُرْآنِ أَفْضَلُ مِنْ بَعْضٍ .

وَهَذَا قَوْلُ الْأَكْثَرِينَ مِنْ الْخَلَفِ وَالسَّلَفِ .

أ-قوله ﷺ فِي الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ فِي الْفَاتِحَةِ (أَنَّهُ لَمْ يَنْزِلْ فِي التَّوْرَاةِ وَلَا فِي الْإِنْجِيلِ وَلَا الزَّبُورِ وَلَا الْقُرْآنِ مِثْلُهَا) فَنَفَى أَنْ يَكُونَ لَهَا مِثْلٌ فَكَيْفَ يَجُوزُ أَنْ يُقَالَ : إنَّهُ مُتَمَاثِلٌ ؟

ب- وَقَدْ ثَبَتَ عَنْهُ فِي الصَّحِيحِ (أَنَّهُ قَالَ لأبي بْنِ كَعْبٍ : يَا أَبَا الْمُنْذِرِ ؛ أَتَدْرِي أَيُّ آيَةٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ أَعْظَمُ ؟ قَالَ (اللَّهُ لَا إلَهَ إلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ) فَضَرَبَ بِيَدِهِ فِي صَدْرِهِ وَقَالَ لَهُ ليهنك الْعِلْمُ أَبَا الْمُنْذِرِ) فَقَدْ بَيَّنَ أَنَّ هَذِهِ الْآيَةَ أَعْظَمُ آيَةٍ فِي الْقُرْآنِ وَهَذَا بَيَّنَ أَنَّ بَعْضَ الْآيَاتِ أَعْظَمُ مِنْ بَعْضٍ .

ج-وَأَيْضًا فَإِنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ وَالْكَلَامُ يَشْرُفُ بِالْمُتَكَلِّمِ بِهِ سَوَاءٌ كَانَ خَبَرًا أَوْ أَمْرًا، فَالْخَبَرُ يَشْرُفُ بِشَرَفِ الْمُخْبِرِ وَبِشَرَفِ الْمُخْبَرِ عَنْهُ، وَالْأَمْرُ يَشْرُفُ بِشَرَفِ الْآمِرِ وَبِشَرَفِ الْمَأْمُورِ بِهِ، فَالْقُرْآنُ وَإِنْ كَانَ كُلُّهُ مُشْتَرَكًا فَإِنَّ اللَّهَ تَكَلَّمَ بِهِ لَكِنَّ مِنْهُ مَا أَخْبَرَ اللَّهُ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ وَمِنْهُ مَا أَخْبَرَ بِهِ عَنْ خَلْقِهِ وَمِنْهُ مَا أَمَرَهُمْ بِهِ، فَمِنْهُ مَا أَمَرَهُمْ فِيهِ بِالْإِيمَانِ وَنَهَاهُمْ فِيهِ عَنْ الشِّرْكِ، وَمِنْهُ مَا أَمَرَهُمْ بِهِ بِكِتَابَةِ الدَّيْنِ وَنَهَاهُمْ فِيهِ عَنْ الرِّبَا، وَمَعْلُومٌ أَنَّ مَا أَخْبَرَ بِهِ عَنْ نَفْسِهِ: (قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ) أَعْظَمُ مِمَّا أَخْبَرَ بِهِ عَنْ خَلْقِهِ : (تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ) وَمَا أَمَرَ فِيهِ بِالْإِيمَانِ وَمَا نَهَى فِيهِ عَنْ الشِّرْكِ أَعْظَمُ مِمَّا أَمَرَ فِيهِ بِكِتَابَةِ الدَّيْنِ وَنَهَى فِيهِ عَنْ الرِّبَا . مجموع الفتاوى (١٧ / ٢١١)

٣- إثبات اسم الله المتضمن للألوهية الحق .

٤- إثبات اسم الحي لله تعالى المتضمن الحياة الكاملة التي لم تسبق بعدم ولا يلحقها زوال .

٥-أن كل مخلوق يموت حتى الملائكة .

٦- أنه يجب الاعتماد على الله ، لأنه هو الحي الذي لا يموت ، فأما من يموت ويمرض فلا يعتمد عليه .

٧-إثبات اسم القيوم لله تعالى المتضمن لصفة القيومة .

٨- غنى الله عن كل أحد ، وكل أحد محتاج لله تعالى كما قال تعالى (يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ)

٩-امتناع السنة والنوم عن الله تعالى لكمال حياته وقيوميته .

١٠- أن الله منزه عن كل نقص وعيب .

١١- عموم ملك الله تعالى .

١٢- أن نطلب الملك ممن يملكه وهو الله سبحانه .

١٣-رضا الإنسان بقضاء الله ، لأنه ملك له .

١٤-كمال سلطان الله تعالى .

١٥- إثبات الشفاعة بإذن الله .

١٦- إثبات علم الله الكامل .

١٧- وجوب الحذر من معصية الله الظاهرة والباطنة ، لأن الله لا يخفى عليه شيء .

١٨-أننا لا نعلم شيئاً إلا ما علمنا الله .

١٩- من أراد العلم فليطلبه من العليم سبحانه .

٢٠- إثبات الكرسي .

٢١- عظمة خلق الكرسي .

٢٢- عظمة خالق الكرسي ، لأن عظم المخلوق يدل على عظمة الخالق .

٢٣- إثبات قوة الله .

٢٤- أن الله لا يعجزه شيء لكمال علمه وقدرته .

٢٥- أن الله لا يثقل عليه حفظ السماوات والأرض .

٢٦- أن السماوات والأرض تحتاج إلى حفظ ، ولولا حفظ الله لفسدتا ، كما قال تعالى (إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً) .

٢٧- إثبات علو الله تعالى بأنواعه كلها .

٢٨- إثبات العظمة لله تعالى .

(لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ قَد تَّبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىَ لاَ انفِصَامَ لَهَا وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ (٢٥٦)) .

[البقرة : ٢٥٦] .

(**لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**) ظاهر الآية على أنه لا يكره أحد على الدخول في دين الإسلام ، لكن جاء في آيات أخر ظاهرها يدل على إكراه الكفار على الدخول في الإسلام كقوله تعالى (قُلْ لِلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَى قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَاتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ) وقوله تعالى (وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّى لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ فَإِنِ انْتَهَوْا فَلا عُدْوَانَ إِلَّا عَلَى الظَّالِمِينَ) .

وقد اختلف العلماء في معنى (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) ؟

فقيل : أن هذا الدين لكماله ، وظهور براهينه ، واتضاح آياته ، وقبول الفطرة له لا يحتاج إلى الإكراه عليه ، لأن الإكراه إنما يقع على ما تنفر عنه القلوب ، ويتنافى مع الحقيقة والحق .

واختار هذا السعدي .

وقيل : إن المعنى : لا تقولوا لمن دخل في الدين بعد الحرب إنه دخل مكرهاً ، لأنه إذا رضي بعد الحرب وصح إسلامه فليس بمكره ، فمعناه : لا تنسبوهم إلى الإكراه .

وقيل : إن هذه الآية خبر في معنى النهي ، أي : لا تكرهوا أحداً على الدخول في الدين .

قال بهذا طائفة كثيرة من العلماء : كالطبري ، وابن القيم ، والشوكاني ، والشنقيطي ، وهو ظاهر اختيار ابن كثير .

وعلى هذا القول فكيف الجمع بين هذه الآية وبين الآيات الآمرة بالقتال والجهاد ؟

ذهب بعض العلماء : إلى عمومها وأنه لا أحد يكره على اعتناق دين الإسلام ، وأما الآيات الأخرى الموجبة للجهاد فلا تتنافى

مع هذه الآية ، لأنها لم تأمر بإجبار أحد على اعتناق دين الإسلام ، وإنما جاء فيها الأمر بالجهاد لإقامة النظام الإسلامي وتقريره وحمايته ، ولدفع الأذى والفتنة عن المؤمنين .

ورجح هذا المسلك ابن القيم رحمه الله .

وذهب بعض العلماء : إلى أن الآية (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) في أهل الكتاب خاصة ، فهم لا يكرهون على الإسلام إذا بذلوا الجزية لقوله تعالى (قَاتِلُوا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلا بِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَلا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلا يَدِينُونَ دِينَ الْحَقِّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حَتَّى يُعْطُوا الْجِزْيَةَ عَنْ يَدٍ وَهُمْ صَاغِرُونَ) وأما الذين يكرهون فهم أهل الأوثان ، فلا يقبل منهم إلا الإسلام ، وهم الذين نزل فيهم قوله (يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ جَاهِدِ الْكُفَّارَ وَالْمُنَافِقِينَ وَاغْلُظْ عَلَيْهِمْ) .

وهذا احتيار ابن جرير ورجحه الشوكاني والشنقيطي .

والحجة لهذا القول ما رواه زيد بن أسلم عن أبيه قال : سمعت عمر بن الخطاب يقول لعجوز نصرانية : أسلمِي أيتها العجوز تسلمي ، إن الله بعث محمداً بالحق ، قالت : أنا عجوز كبيرة والموت إليّ قريب! فقال عمر : اللهم اشهد ، وتلا (لاَ إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) .

وعن ابن عباس قال : نزلت هذه في الأنصار ، كانت تكون المرأة مِقلاتاً فتجعل على نفسها إن عاش لها ولد أن تهوِّده ؛ فلما أجليت بنو النضير كان فيهم كثير من أبناء الأنصار فقالوا : لا ندع أبناءنا! فأنزل الله تعالى (لاَ إِكْرَاهَ فِي الدين قَد تَّبَيَّنَ الرشد مِنَ الغي) .

قال أبو داود : والمِقلاتُ التي لا يعيش لها ولدٌ.

وقيل : إن آية (لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ) منسوخة بآيات القتال ، لكنه قول ضعيف .

قال القرطبي : وروي هذا عن ابن مسعود وكثير من المفسرين.

- **قال ابن كثير** : فأما الحديث الذي رواه الإمام أحمد عن أنس: أن رسول الله ﷺ قال لرجل: أسلم، قال: إني أجدني كارها، قال : وإن كنت كارهاً ، فإنه ثلاثي صحيح، ولكن ليس من هذا القبيل فإنه لم يكرهه النبي ﷺ على الإسلام بل دعاه إليه فأخبر أن نفسه ليست قابلة له بل هي كارهة فقال له : أسلم وإن كنت كارهًا ، فإن الله سيرزقك حسن النية والإخلاص .

(**قَدْ تَبَيَّنَ الرُّشْدُ مِنَ الْغَيِّ**) أي : تميز الحق من الباطل ، والإيمان من الكفر ، والهدى من الضلالة بكثرة الحجج والآيات الدالة

قال البيضاوي : قوله تعالى (قَد تَّبَيَّنَ الرشد مِنَ الغي) تميز الإيمان من الكفر بالآيات الواضحة ، ودلت الدلائل على أن الإيمان رشد يوصل إلى السعادة الأبدية والكفر غي يؤدي إلى الشقاوة السرمدية ، والعاقل متى تبين له ذلك بادرت نفسه إلى الإيمان طلباً للفوز بالسعادة والنجاة ، ولم يحتج إلى الإكراه والإلجاء .

(**فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ**) أي : من خلع الأنداد والأوثان وما يدعو إليه الشيطان من عبادة كل ما يعبد من دون الله .

- **قال الماوردي** : قوله تعالى (فَمَن يَكْفُرُ بِالطَّاغُوتِ) فيه سبعة أقوال :

أحدها : أنه الشيطان وهو قول عمر بن الخطاب.

والثاني : أنه الساحر ، وهو قول أبي العالية.

والثالث : الكاهن ، وهو قول سعيد بن جبير.

والرابع : الأصنام.

والخامس : مَرَدَة الإنس والجن.

والسادس : أنه كل ذي طغيان طغى على الله ، فيعبد من دونه ، إما بقهر منه لمن عبده ، أو بطاعة له ، سواء كان المعبود

إنساناً أو صنماً ، وهذا قول أبي جعفر الطبري .

(**وَيُؤْمِنْ بِاللَّهِ**) أي : وحد الله فعبده وحده ، وشهد أن لا إله إلا الله .

- وفي هذا أن التوحيد لابد فيه من الكفر بالطاغوت وهذا معنى : لا إله إلا الله .

كما قال تعالى (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ . إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي فَإِنَّهُ سَيَهْدِينِ) .

ففي هذه الآية معنى : لا إله إلا الله (إِنَّنِي بَرَاء مِّمَّا تَعْبُدُونَ . إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي) لأن كلمة التوحيد (لا إله إلا الله) تنطوي على نفي وإثبات ، فعبر عن المنفي فيها بقوله (إنني براء مما تعبدون) وعبّر عن المثبت فيها بقوله (إلا الذي فطرني) ففيه تفسير التوحيد بإثبات العبادة لله وحده ونفيها عما سواه .

وقال تعالى (اعْبُدُواْ اللّهَ وَاجْتَنِبُواْ الطَّاغُوتَ) هذه الآية هي معنى (لا إله إلا الله) لأن التوحيد نفي وإثبات ، النفي في قوله (واجتنبوا الطاغوت) والإثبات في قوله (اعبدوا الله) ، ففيه إثبات العبادة لله وحده وبنفي عبادة ما سواه .

وقال ﷺ (من قال: لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله، حرم ماله ودمه، وحسابه على الله عز وجل).

فلم يكتفِ باللفظ المجرد عن المعنى في قول : لا إله إلا الله ، بل لابد من قولها مع اعتقاد معناها والعمل بمقتضاها وفي ضمن ذلك : الكفر بما سوى الله من المعبودات ، وهذه هي حقيقة التوحيد .

- هذا الحديث من أعظم ما يبين لا إله إلا الله ، وأنه الكفر بكل ما يعبد من دون الله .
- أن مجرد التلفظ بلا إله إلا الله مع عدم الكفر بما يعبد من دون الله لا يحرم الدم والمال ولو عرف معناها وعمل بها ما لم يضف إلى ذلك الكفر بما يعبد من دون الله .
- أن البراءة من الكفر تكون بثلاثة أشياء : بالقلب ، واللسان ، والجوارح .
  - **براءة القلب** : وهو كراهة الكفر وأهله ، وبغضهم وتمني زوالهم واعتقاد بطلان الكفر وتركه .

وحكمه : فرض لازم ، ولا يسقط بحال من الأحوال ، لأنه لا يتصور فيه الإكراه ، لأن عمل القلب خفي .

  - **براءة اللسان** :وهو التصريح باللسان على أن عبادة غير الله باطلة .

وحكمه : واجب .

لقوله تعالى (وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِمَّا تَعْبُدُونَ) .

ولقوله تعالى (قُلْ يَا أَيُّهَا الْكَافِرُونَ . لا أَعْبُدُ مَا تَعْبُدُونَ ...) .

ولقوله تعالى عن إبراهيم (قَدْ كَانَتْ لَكُمْ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ فِي إِبْرَاهِيمَ وَالَّذِينَ مَعَهُ إِذْ قَالُوا لِقَوْمِهِمْ إِنَّا بُرَآءُ مِنْكُمْ وَمِمَّا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ كَفَرْنَا بِكُمْ وَبَدَا بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمُ الْعَدَاوَةُ وَالْبَغْضَاءُ أَبَداً) .

  - **براءة الجوارح** : وتكون بالجهاد وإزالة الكفر والكافرين وقتالهم ، وهي مرتبطة بالقدرة والمصلحة .

ويسقط مع الإكراه وعدم الاستطاعة ، لقوله تعالى (لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْساً إِلَّا وُسْعَهَا) .

(**فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى**) أي : فقد ثبت في أمره واستقام على الطريقة المثلى والصراط المستقيم .

وقيل : فقد استمسك من الدين بأقوى سبب ، وشبه ذلك بالعروة القوية التي لا تنفصم ، فهي في نفسها محكمة مبرمة قوية ، وربطها قوي شديد .

وقيل : يعني الإيمان ، وقيل : الإسلام ، وقيل : لا إله إلا الله .

- **قال ابن كثير** : وكل هذه الأقوال صحيح ولا تنافي بينها .
- **قال أبو حيان** : قال ابن عطية وقدّم ذكر الكفر بالطاغوت على الإيمان بالله ليظهر الاهتمام بوجوب الكفر بالطاغوت.

(**لا انْفِصَامَ لَهَا**) أي : لا انقطاع لها ولا زوال .

- عَنْ قَيْسِ بْنِ عُبَادٍ قَالَ (كُنْتُ بِالْمَدِينَةِ فِي نَاسٍ فِيهِمْ بَعْضُ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ فَجَاءَ رَجُلٌ فِي وَجْهِهِ أَثَرٌ مِنْ خُشُوعٍ فَقَالَ بَعْضُ الْقَوْمِ هَذَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ هَذَا رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ . فَصَلَّى رَكْعَتَيْنِ يَتَجَوَّزُ فِيهِمَا ثُمَّ خَرَجَ فَاتَّبَعْتُهُ فَدَخَلَ مَنْزِلَهُ وَدَخَلْتُ فَتَحَدَّثْنَا فَلَمَّا اسْتَأْنَسَ قُلْتُ لَهُ إِنَّكَ لَمَّا دَخَلْتَ قَبْلُ قَالَ رَجُلٌ كَذَا وَكَذَا قَالَ سُبْحَانَ اللَّهِ مَا يَنْبَغِي لأَحَدٍ أَنْ يَقُولَ مَا لاَ يَعْلَمُ وَسَأُحَدِّثُكَ لِمَ ذَاكَ رَأَيْتُ رُؤْيَا عَلَى عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ فَقَصَصْتُهَا عَلَيْهِ رَأَيْتُنِي فِي رَوْضَةٍ – ذَكَرَ سَعَتَهَا وَعُشْبَهَا وَخُضْرَتَهَا – وَوَسْطَ الرَّوْضَةِ عَمُودٌ مِنْ حَدِيدٍ أَسْفَلُهُ فِي الأَرْضِ وَأَعْلاَهُ فِي السَّمَاءِ فِي أَعْلاَهُ عُرْوَةٌ . فَقِيلَ لِي ارْقَهْ . فَقُلْتُ لَهُ لاَ أَسْتَطِيعُ . فَجَاءَنِي مِنْصَفٌ – قَالَ ابْنُ عَوْنٍ وَالْمِنْصَفُ الْخَادِمُ – فَقَالَ بِثِيَابِي مِنْ خَلْفِي – وَصَفَ أَنَّهُ رَفَعَهُ مِنْ خَلْفِهِ بِيَدِهِ – فَرَقِيتُ حَتَّى كُنْتُ فِي أَعْلَى الْعَمُودِ فَأَخَذْتُ بِالْعُرْوَةِ فَقِيلَ لِيَ اسْتَمْسِكْ . فَلَقَدِ اسْتَيْقَظْتُ وَإِنَّهَا لَفِي يَدِي فَقَصَصْتُهَا عَلَى النَّبِيِّ ﷺ فَقَالَ « تِلْكَ الرَّوْضَةُ الإِسْلاَمُ وَذَلِكَ الْعَمُودُ عَمُودُ الإِسْلاَمِ وَتِلْكَ الْعُرْوَةُ عُرْوَةُ الْوُثْقَى وَأَنْتَ عَلَى الإِسْلاَمِ حَتَّى تَمُوتَ) قَالَ وَالرَّجُلُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ سَلاَمٍ ، متفق عليه .

(**وَاللَّهُ سَمِيعٌ**) لأقوال العباد ، يسمع جميع الأصوات ويسمع السر والنجوى .

- وسمع الله ينقسم إلى قسمين :

أولاً : سمع إدراك : أي أن الله يسمع كل صوت خفي أو ظاهر .

قال تعالى : (قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي...) .

هذا السمع قد يراد به الإحاطة ، كالآية السابقة .

وقد يراد به التهديد ، كقوله تعالى : (قَدْ سَمِعَ اللهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُواْ إِنَّ اللهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاء) .

وقد يراد به التأييد ، ومنه قوله تعالى لموسى : (قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَى) أي أسمعك وأؤيدك .

ثانياً : سمع إجابة : أي أن الله يستجيب لمن دعاه .

ومنه قول إبراهيم (إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاء) أي مجيب الدعاء .

ومنه قول المصلي (سمع الله لمن حمده) يعني استجاب لمن حمده .

(**عَلِيمٌ**) بأفعالهم ، يعلم جميع الأمور الظاهرة والباطنة .

الفوائد :

١- أنه لا أحد يكره على الدين .

٢-أنه ليس هناك إلا رشد أو غي .

٣- أنه لا يتم الإخلاص لله إلا بنفي جميع الشرك .

٤- أن كل ما عبد من دون الله فهو طاغوت .

٥- أنه لا نجاة إلا بالكفر بالطاغوت والإيمان بالله .

٦- إثبات اسمين من أسماء الله وهما : السميع والعليم .